عزيز عبد الصاحب.. فنان صادق بامتياز !

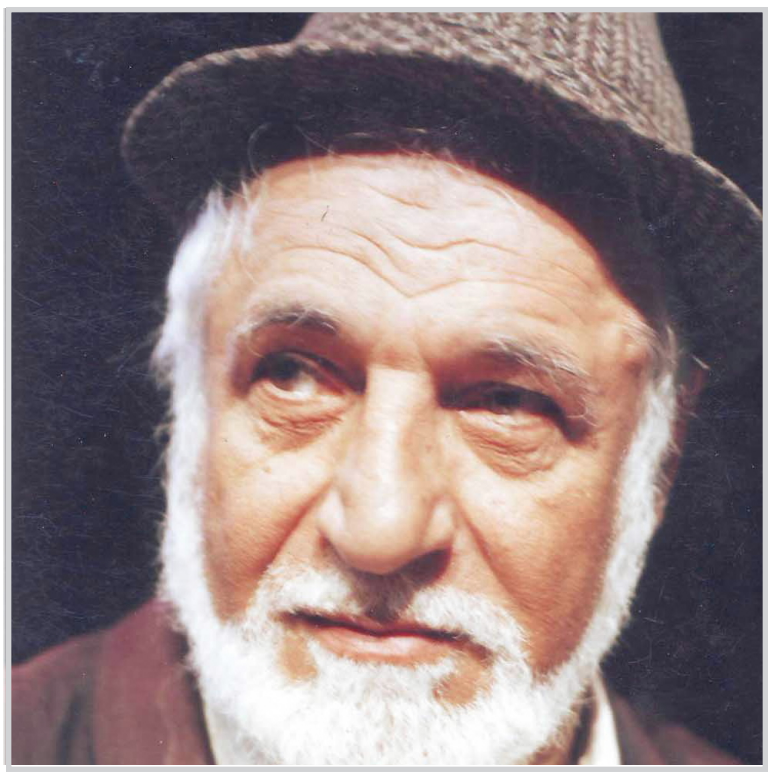

داود امين

كان اللقاء بعزيز عبد الصاحب واحدا من اولوياتي في زيارتي الاولى للعراق خريف ٢٠٠٣ ، اي بعد سقوط النظام الصدامي ببضعة اشهر ، وكان اللقاء الاول في بيت صديقنا المشترك الشاعر (عبد الله الرجب) الذي دعانا معا للعشاء ، وكانت المفاجاة عندما دخل عزيز بغترة بيضاء وعقال اسود ولحية بيضاء وسترة ودشداشه ، وتغير كبير في الصورة التي احفظها عنه ، لذلك بقيت ربما للحظات احدق فيه ، شاكا في انه هو ام غيره ، ويبدو انه هو ايضا احتفظ لي في ذهنه بصورة اخرى ، اذ بدا مترددا ، وعندما احتضنته قال متسائلا : هذا داود !؟ وكان صوته برهاني الحاسم على انه هو ، اذ ظلت تلك البحة ، التي اعرفها ، وذلك الهدوء الواثق في صوته الجميل ! وفي هذا المساء سجلت بالفديو كاميرا خشوع عزيز وهو يصلي بغترته البيضاء وعقاله ولحيته الجميلة ! وكان انقطاع الكهرباء سببا في عدم تصويري لتفاصيل تلك الجلسة الجميلة !

في اليوم التالي لذلك العشاء المشترك ، كنت في سوق بغداد الجديدة فلفتت انتباهي كتب معروضة على الرصيف ، اذ كانت كتبا ادبية وفنية ممتازة ، وعندما تصفحت بعضها اكتشفت اهداءات لعزيز من مؤلفيها ، او اشارات الى انها من كتب عزيز عبد الصاحب ، وكانت المفاجاة عندما سالت البائع الشاب عن مصدر هذه الكتب ، لاكتشف انه (اسامة) ابن عزيز ، ولم اكن اعرفه !! اعدت الكتب لاسامة من دون اخباره من انا ، وانا مخنوق بالم وحزن لا يمكن وصفه ، وذهبت لمحل (عبد الله الرجب) الذي كانت الكتب مفروشة ليس بعيدا عن محله مستفسرا عن الموضوع ، فهون عبد الله الامر علي بطريقته المرحة قائلا ان عزيز يريد تلهية ابنه المتخرج حديثا ، والذي لم يعين بعد ، ثم انه لم يعد بحاجة لهذه الكتب ! طرحت على عبد الله فكرة ان اعطي لاسامة ٢٠٠ او ٣٠٠ دولار واقول له احمل الكتب للبيت وقل لوالدك ان صديقا اشتراها ويهديها لك ، ولكن عبد الله لم يوافقني ، وقال ان عزيز لا يتقبل اية مساعدة !! وفكرت بوضع مبلغ في ظرف وتقديمه مباشرة لعزيز ، ولكن عبد الله حذرني من انه لن يقبل مطلقا !! كانت لدى عزيز عزة نفس واباء اعرفها فيه واقدرها وافهمها ، برغم ظروفه الاقتصادية الصعبة ! لذلك لم اجرا على المفاتحة المباشرة بمساعدته !

في هذه الفترة كلفت من قبل (طريق الشعب) باجراء لقاء صحفي شامل مع مسرحي عراقي وموسيقي وتشكيلي ، ولم يكن في ذهني منذ التكليف بالنسبة للمسرحي سوى عزيز عبد الصاحب ، فعمره المسرحي يقترب من نصف قرن وتجربته ومكانته لا يمكن ان ينافسه فيها احد ، هذا ناهيك عن معرفتي به وبالكثير من محطات حياته ، اتصلت به واتفقنا على اللقاء ، وذهبنا معا الى المسرح الوطني ، فقد كانت هناك عروض لمسرح الطفل ، شاهدناها معا ، وفي الاستراحة جلسنا مع الفنانين عدنان شلاش وجبار جنكير الذين لم ارهم منذ حوالي ٣٠ عاما ، وبدات اصور عزيز واطرح عليه بعض الاسئلة ، وفي المسرح الوطني كان يقدمني لمعارفه من الفنانين والمسؤولين باعتباري فنانا مسرحيا يعيش في الغربة ! وكنت احرج من هذا التقديم فانا لم امارس التمثيل منذ ربع قرن ! ولم يعد هذا الموضوع ، ومنذ زمن طويل ، من اهتماماتي مطلقا ! بعد المسرح الوطني تغدينا في مطعم قريب ، واخذنا تاكسي لبيته ، وهناك وعلى ضوء (لاله !) اكملت المقابلة، واخترت من ارشيف صوره صورتين رائعتين له ، واعدا باعادتهما بعد نشر المقابلة ! وبعد ايام انجزت تحرير المقابلة الطويلة مع مقدمة ، ودفعتها للرفيق الذي كلفني بالموضوع وانتظرت ان تنشر، وتابعت الى حد الالحاح الممل، وكان الرفيق يعدني ويعدني حتى انهى مهمته المؤقتة في الجريدة ، وعاد لغربته والمقابلة لم تظهر ! وكان عزيز يسالني بادب وخجل عن موعد النشر ، ولا يجد عندي جوابا شافيا لسؤاله ! والمؤسف انني لم املك نسخة عن المقابلة ، فقد كتبتها باليد ، والا لنشرتها في مكان اخر، والان وقد رحل عزيز لم يكن امامي ، وفاءا لذلك الصديق الغالي ، سوى العودة لاوراقي التي سجلت عليها مشاريع اسئلتي اليه واصول اجوبته عليها ، ثم اعيد صياغة المقابلة مجددا ، برغم ثقتي ان المقابلة الاصلية والصورلا تزال محفوظة في ارشيف القسم الثقافي من (طريق الشعب) اذ ليس هناك سبب يدعو لان يتلفها احد ! والطريف ان مقابلتي للفنان الموسيقي (حسن الشكرجي) ظهرت في (طريق الشعب) في حلقتين ، وكنت قد قدمتها بعد مقابلة عزيز باشهر طويلة !

كان اللقاء الاكثر اهمية مع عزيز في هذه الفترة ، ذاك الذي تم في بيت الصديق (حميد غني) ، فقد جمع (ابو لمى) في بيته الكريم نخبة من ابناء الناصرية على مائدة شهية ، ويبدو ان عزيز كان مستعدا لهذه الجلسة اذ حضر بيشماغ ، وليس بغترة ، مع عقال وعباءة ، وفي جعبته اوراق وديوان شعر وذاكرة متقدة ! وكنت مستعدا للتسجيل اذ جهزت بضعة افلام للفديو كاميرا ، وبرغم انقطاع الكهرباء معظم الوقت ، ولكن ما سجلته ، بالكهرباء او بدونها ، يعتبر وثيقة مهمة لعزيز ، اعتز الان بامتلاكها ، فقد قرا عزيز اشعاره واشعار غيره وغنى وتحدث في مختلف الامور!

وكان اللقاء المهم الثاني ، اثناء رحلتي الثانية للعراق (نيسان ٢٠٠٤) اذ تعمدت دعوة الرفيق (مفيد الجزائري) ، وكان وقتها وزيرا للثقافة ليلتقي ببعض مبدعي الناصرية ، وبينهم بالطبع (عزيز عبد الصاحب) وتم اللقاء في بيت اخي في (بغداد الجديدة) ، وكان عزيز قد جهز نفسه للقاء ، فبعد الغداء ، وفي فترة تناول الشاي قرا عزيز العديد من اشعاره وتحدث في امور شتى ، وعندما خرج الرفيق (مفيد الجزائري) لارتباطه بموعد رسمي ، استمرت جلستنا ساعات اخرى ، وقد سجلت بعضها بالفديو كاميرا، وكان عزيز يقرا الشعر ويتحدث في الممتع والمفيد من امور الادب والفن . وكان اخر لقاء بيني وبين عزيز اواخر (نيسان ٢٠٠٦) عندما كنا معا في اسبوع المدى الثقافي في اربيل ــ كردستان ، وقد لمست تعبه وشيخوخته في هذا اللقاء ، كان يمشي ويتحدث ببطء ، وقد تناولنا الطعام ، على مائدة واحدة في فندق (الشيراتون) عدة مرات ، لكنه لم يكن يسكن معي في نفس الفندق ، واذكر في هذا اللقاء انه قدمني للشاعر (ناهض الخياط) باعتباري عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي واعيش في الخارج ! فصححت له ولناهض الامر قائلا : انا عضو فقط في الحزب الشيوعي العراقي ، وليس لدي اي صفة اخرى ، فعلق الشاعر ناهض الخياط مخاطبا عزيز : انا اعرفه فقد سمعت به من اخوتي واصدقائي (وناهض شقيق حسن وعادل وهما من اصدقائي) .

لننتقل للمحطة المهمة في حياتك الفنية والانسانية ــ قلت لعزيز ــ واقصد بذلك انتقالك لبغداد كيف تم وما هي حصيلته ؟

يجيب عزيز قائلا : كانت لعميد المسرح العراقي الفنان الراحل (حقي الشبلي) ثقة كبيرة بي ، وقد فاتحني عند زيارته للناصرية بفكرة تاسيس فرقة قومية للتمثيل ، واقترح ان اكون من بين مؤسسيها ، وهكذا وباقتراح منه انتقلت الى بغداد لاكون في الاول من ايار عام ١٩٦٨ واحدا من مؤسسي (الفرقة القومية للتمثيل) الى جانب حقي الشبلي ووجيه عبد الغني وسليمة خضير وقاسم الملاك وكامل القيسي وصفوت الجراح وفاطمة الربيعي وبهنام ميخائيل ، كنت حينها اعزبا وقد سكنت في الوزيرية مبتدئا رحلة التعب اللذيذ ، حيث قدمت الفرقة اول اعمالها وكانت مسرحية (وحيدة) وهي من تاليف وزير خارجية العراق انذاك (موسى الشاهبندر)، وكان موضوعها يتحدث عن ثورة العشرين ومجابهة الشعب العراقي للاحتلال الانكليزي ، وهي مسرحية شعبية اخرجها فخري الزبيدي ومحمد القيسي ، ومثلت فيها دور الشرطي الذي يقتل (طاووس خان). وبعد مجيء البعث مجددا للسلطة في ١٧ تموز عام ١٩٦٨ ، سيطر البعثيون على الفرقة وقاموا بنقل الفنان (حقي الشبلي) ووجيه عبد الغني ثم قاسم الملاك وصفوت الجراح وتم تبعيث الفرقة ! وبالبرغم من ذلك فقد قدمت الفرقة مسرحيات (البيك والسايق) و (الطوفان) و (الحصار) وفيها مثلت شخصية محمد سايس الخيل الذي يفقا عينيه كي لا يرى حريق بغداد ، وهذه المسرحية لعادل كاظم ، وقد قُدمت في دمشق ايضا . والحقيقة ان الدولة لم تبخل في الانتاج والصرف المادي ، ولكنهم فشلوا في قيادة الفرقة وفي ادارتها ، كانوا في الجوهر ينافسون بالفرقة القومية فرقة المسرح الحديث ، التي يعتقدون انها تابعة للحزب الشيوعي العراقي ، وكانت هذه المنافسة مفيدة في انعاش وتنشيط العمل المسرحي في فترة (الجبهة الوطنية) في السبعينيات ، وفي هذه الفترة قدمنا (دائرة الفحم البغدادية) التي مثل فيها الفنان (منذر حلمي) فمنعتها السلطة بعد عرضها لليلة واحدة ، ثم بدات اجراءات اكثر تشددا اذ كان ياتي مقدم من الامن العامة ليشاهد العمل المسرحي الجديد للفرقة قبل تقديمه للجمهور او قبل السفر به للخارج ! وهذا ما حدث مع مسرحية (مسافر زاده الخيال) ، وعندما اشعل النظام حربه مع ايران ، طولبت الفرقة باعمال تعبوية تمجد الحرب والطاغية ، وقد اضطرت الفرقة لتقديم اعمال كهذه مثل مسرحية (فصيل على طريق المجد) من اعداد واخراج الفنان (سامي عبد الحميد) وبالبرغم من الصرف الهائل على هذه المسرحية الا ان الجمهور اعرض عنها ولم تحظ بالاقبال المنشود ! وفي هذه الفترة لم تقدم فرقة المسرح الحديث اعمالا مهمة بسبب غياب اسماء مهمة من الفرقة كزينب وناهدة الرماح وغيرهم ممن اضطروا لمغادرة الوطن اواخر السبعينيات !

عام ١٩٩٠ كتبت مسرحية (ليلة خروج بشر بن الحارث حافيا) واخرجها الفنان (سامي عبد الحميد) وفيها تحدثت عن النفاق الذي كان سائدا في تلك الفترة حيث تقول الجارية لبشر (لا تخلط بولا بعسل .. ولا تركب حصانين في وقت واحد ، احدهما للأمام والآخر للخلف..) وكانت دعوتي في هذه المسرحية للانسان ان يتوحد مع ذاته فلا يصفق وقلبه في ميدان اخر! وقد عرضت هذه المسرحية في المغرب !

قلت لعزيز لننتقل للتأليف فانا اعرف انك كتبت للمسرح في وقت مبكر ، كما ان لك رايا تؤكد عليه باستمرار ، وهو ضرورة ايجاد نصوص عراقية وتشجيع الكاتب المسرحي العراقي ، ما اسهاماتك الواضحة في هذا المجال ؟

يجيب عزيز: اعمالي في التاليف كثيرة ومتنوعة الأغراض والمضامين فعدا مسرحية (ليلة خروج بشر بن الحارث حافيا) كتبت مسرحية (اين هم الان) التي اخرجها الفنان (حميد الجمالي) وكانت مسرحية تدين الحرب، وقد حذفت السلطة فصلا كاملا منها ! وكتبت ايضا مسرحية (الباب العالي) ادنت فيها النظام متعكزا على شخصيات تركية ! كذلك كتبت مسرحية عنوانها (انطقي يا ابنتي) وتحكي قصة موظف بسيط تفقد ابنته النطق اثناء القصف فيذهب بها الى مختلف الاطباء من دون ان تشفى ، واثناء خطاب للاب نحو ابنته يسقط ميتا ، وفي هذه اللحظة تنطق الفتاة ! كما كتبت مسرحية (زوار الليل) وتحدثت فيها عن ازمة الثقافة والمثقفين ، ووظفت فيها جانبا من حياة الشهيد (خالد الامين) ! كما كتبت مسرحيات اخرى مثل (رجال المسافات) و (شجرة العائلة) و (الرائحة) و (ابن ماجد) وغيرها .

اعرف انك ساهمت في عروض مسرحية خارج العراق ــ سالت عزيز ــ ما رايك في تلك العروض ؟ وما صداها لدى جمهور تلك البلدان ؟

يقول عزيز : المسرح العراقي الذي ساهمنا فيه خارج الوطن كان مسرحا موسميا ، مسرح تتحكم فيه المناسبة والسفر ، اذ تاتي دعوة للمشاركة في مهرجان عربي ما فتلبي الفرقة القومية الدعوة وتساهم بعمل ربما لم يقدم في العراق ، ولكن مع ذلك كان هذا الميدان مناسبة لتعريف الجمهور العربي بالفنان العراقي وبتجربته المسرحية ، وهو ايضا فرصة لان نتعرف نحن على تجارب اخرى في قرطاج وسواها . لقد شاركنا في المغرب والاردن ومصر وتونس وسوريا واستقبلت اعمالنا المسرحية بترحاب كبير لان الفنان العراقي كان يبذل جهدا كبيرا واستثنائيا من اجل تقديم الافضل . في قرطاج كنت ممثلا ولكني قدمت ايضا في الندوة الفكرية بحثا موضوعه (المسرح والتراث) وحصلت فيه على جائزة اساسية هي دبلوم قدمه لي السفير التونسي في بغداد عام ٢٠٠١ ! وفي عام ١٩٩٩ اخذت الجائزة الاولى في التاليف عن مسرحية (رغيف على وجه الماء) وهو عمل حصل على الجائزة الأولى، وقد مثلت فيه الى جانب جعفر السعدي وهناء عبد القادر وولدي سعد عبد الصاحب .

سالت عزيز عن فترة التسعينيات ، فترة (الحصار الاقتصادي) كيف يستطيع ان يرسم للقاريء صورة مقاربة لواقع المسرح والفن عموما في تلك الفترة ؟

يقول عزيز: فترة التسعينيات هي فترة التردي الحقيقي للفن والثقافة عموما ، وخلالها جاع الفنان وتردت احواله الاقتصادية ، وكانت المفاجأة كبيرة عندما دعانا الطاغية صدام حسين لزيارته في واحد من قصوره الكثيرة (وهذه شهادة يجب ان اقولها للتاريخ) فقد تقاسمنا الحديث انا وزملائي ، وقد تحدثت عن تردي المسرح في هذه المرحلة وكيف ان تاجرا من الشورجة يتعامل مع المسرح وينتج عملا لانه رصد احدى الممثلات الجميلات لغايات سافلة ، او ان ياتي برجل جنوبي يلبس العقال واليشماغ ليسخر منه على المسرح، لقد تحدثت عن كل هذا التردي والانحلال في المسرح العراقي للطاغية مباشرة ، واوصلته له بشجاعة وامانه ، وفي الجوهر كنت ادينه هو وادين نظامه ! لكنه لم يفعل شيئا ، سوى شيء واحد وبطلب من الفنانة (سعدية الزيدي) التي قالت ان الفنانين جاعوا وافتقروا الى ابسط متطلبات الحياة وهم بحاجة ان تكون لهم رواتب مناسبة ، اذ بالفعل عُدلت رواتبهم وتم منح كل فنان مليوني دينار ! ويمكن القول ان اشتغال عدد من الفنانين فيما يسمى بالمسرح التجاري ، كان بسبب حالة الجوع التي عاشوها وعوائلهم في تلك الفترة ، وحتى العمل في مسرحية (زبيبة والملك) وهي من تاليف الدكتاتور كانت بالنسبة للكثيرين بسبب الحاجة والبعض كان مجبرا على العمل ! باختصار يمكن ان اقول لك : اكل مر واشرب مر ولا تعاشر مر ، وصدام حسين كان مر.. علكم .. الان ماكو امان .. ماكوحاجات كثيرة ولكن هناك قضية كبيرة ومهمة كسبناها هي الحرية .. نحن الان نتنفس الحرية ، والفنان يستطيع ان يعبر عن نفسه وعن صوته ، وهذه قضية ليست هينة. !

بعد هذه السياحة الممتعة في الماضي ــ قلت لعزيز ــ لنعود للحاضر ، اعرف انك كنت مديرا للفرقة القومية واستقلت من هذا الموقع المهم لتوقف الصرف على الانتاج بسبب حجة الحصار ، كما اعرف انك كنت عضوا في لجنة اجازة النصوص المسرحية وعضو رابطة نقاد المسرح في العراق، هذا إضافة لعضويتك لنقابة الفنانين واتحاد الادباء العراقيين هذه المواقع المهمة تشجعني على سؤالك عن واقع المسرح العراقي الان ؟

يصمت عزيز قليلا قبل ان يتحدث بالم قائلا : المسرح رهين الامان والاستقرار، فالعائلة العراقية كانت عندما تريد ان تسهر تذهب الى المسرح ، فالمسرح متعة وثقافة للعائلة وحين يغيب الامان (كما هو حاصل الان) يغيب المسرح ويتضاءل دوره ، ولكن مع ذلك مهرجان بغداد المسرحي الاول كان محاولة جادة لتحدي الواقع وفيه قدمت اعمال شبابية تبشر بالخير ، هناك محاولات تشبثية وجادة تثبت ان الفنان العراقي حي وفاعل وهو لن ينسى تاريخه ومعاناته ! اهم ما في هذه المرحلة انه ليس هناك شرطي يعترض على اجازة النص او يقوم بتاويله، وهي فرصة امام المسرحيين العراقيين لطرح ما هو فكري ونفسي وواقعي ، اذ عبر هذه المفاصل يمكن ان يكون المسرح واضحا ومستفزا ، بل ان يكون مسرحا يشبه (الفضيحة) وبما ان الامان ليس مستتبا لذلك ينبغي ان تكون صيغ المسرح جديدة ومتوائمة مع ما يجري وما هو قائم .

لقد اتعبتك بهذا الحوار الطويل ــ قلت لعزيز ــ هل يمكن ان تلخص مقترحات محددة للنهوض بواقع المسرح العراقي ؟

يقول عزيز : نعم استطيع تلخيص ذلك بالنقاط التالية :ــ

١ ــ العمل على تقديم عروض حقيقية صادقة ، ذات مضامين تهاجم السلب في حياتنا ، وهذه العروض يجب ان تكون قصيرة الى حد ما ، يشترك فيها ممثلون معروفون ، لان تاثير هؤلاء سيكون كبيرا على المتلقي ، وهذا ما تطمح له هذه الاعمال .

٢ ــ ان تقدم هذه الاعمال في الاماكن العامة (غير التقليدية) خارج قاعة المسرح.. في المساجد والكنائس والمقاهي وفي الساحات العامة.

٣ ــ استخدام طرق اخراجية مناسبة كالمسرح الملحمي (مسرح بريشت) حيث يتم كسر الإيهام واشراك الجمهور في العمل المسرحي.

٤ ــ اختيار الموضوعات المناسبة ، والتي تثير الاسئلة لدى المتلقي وتدفعه للتفكير والمشاركة والمساهمة في وضع الحلول .

٥ ــ تحويل الية الفرقة القومية للتمثيل الى مجموعات صغيرة لأنجاز المقترحات السابقة . ٦ ــ ان تنسق الفرقة القومية مع وزارة التربية لايجاد وقت لا يتعارض مع اوقات دوام الطلبة والتلاميذ لكي يشاهدوا العروض المسرحية .

٧ ــ ان يجري استكتاب مؤلفين عراقيين ، وان تقدم لهم مكافآت مجزية ومغرية لكتابة اعمال مسرحية متواصلة ، كما اني لا اميل لخصخصة المسرح لان المسرح حالة ثقافية ويجب ان ترعاها الدولة وتساندها.

عزيز عبد الصاحب في ذكرى الرحيل

علي حسين

ينتمي عزيز عبد الصاحب الى جيل من الفنانين الذين آمنوا بان الفن جزء من الحياة وان الحياة ماهي الا مسرح كبير يعيش فيه الجميع ادوارهم بشكل كامل..الم يقل المعلم ستانسلافسكي (ان المسرح هو شكل محدد لعكس الحياة واحداثها فنيا) هذا المسرح الذي كان رفيقا لعمر عزيز وقرينا لروحه وتوأما لفكره ومعتقداته والحلم السعيد بالنسبة اليه وقد اورثه حب المسرح هذا عدم الانسجام مع الظروف ونهما لايفقد عنفوانه للبقاء جامحا متوترا حر العقل والجسد والمصير.اورثه نظرة متفائلة للحياة وعشقا للحرية وما يثير الانتباه في تجربة عبد الصاحب هو ذلك الارتباط الوثيق بين سيرته الذاتية من حيث هي حياة خاصة وتجربته الفنية والثقافية باعتبارها تجربة تنتمي لحقل ابداعي له ضوابطه وقوانينه العامة. ومن هنا استحالة فصل اعماله الفنية عن حياته.فقد كانت هذه الاعمال وان اتخذت أشكالاً مختلفة (نصوص مسرحية، مقالات نقدية، ادوار تمثيلية، قصائد) اكثر من تعبير عن افكار ومفاهيم.انها يومياته وتفاصيل هذه اليوميات، بهذا المعنى يمكن ان نقول ان عزيز عبد الصاحب كان ابن اللحظة المعاشة، افكاره ومشاريعه تنفجر من هذه اللحظة تماما كما ينفجر الدم من الشرايين، الفن وعالمه السحري اتخذ عند عزيز حركة الحريق في غابة عظيمة وبالتالي هو الانفجار الذي يكسر كل انتظام. هو شيء من الحياة المتمردة على الاطر الاجتماعية السائدة والقوانين القسرية، الحياة كانت عنده تتجدد حركتها بالممارسة اليومية للفن وطقوسه وهي حياة خليط من صعلكة ويأس ولذة ومتعة وقلق وانسجام عال مع النفس.

> .ان حياته هي اجمل واروع وابدع مؤلف كتبه. التحام الفن بالحياة العامة هو ما اعطى مسرحيات عزيز نكهتها الفريدة المفعمة بجرأة العقل والقلب دونما انفصال وهو الكاتب المتورط فيما يكتبه تورطا حياتيا عضويا لذلك هو يتحمس ويدافع عن مسرحياته وآراءه النقدية وهو بذلك لايسعى لحماية نصوصه او افكاره انما يدافع عن كل حياته بوحدة غير قابلة للتجزئة، فالافكار بمسرحيات عزيز حيوات تعاش.الفكرة كائن حي صعب المراس لاتمنح اسرارها الثرية الا عبر عناق دائم متجدد وهو الكاتب والانسان والممثل الذي رفض القهر على المستوى الشخصي والعام وكانت حياته صراعاً لايهدأ لفك سلاسل القيود بجميع اشكالها وقد كان يؤمن بان حرية الانسان لاتزدهر الا بازدهار حريات الاخرين، وليس غريبا ان نجد ان اشهر مسرحياته تحمل عناوين لرجال عشقوا الناس والحياة (ابن ماجد،بشر الحافي، السهروردي) وهو في هذه المسرحيات لم يكن يسعى الى استنساخ ابداعي وفني لشخوص من الماضي او لفلاسفة الصوفية ربما لان فكرة الحقيقة الازلية كاملة في اعماق النفس وان كل هم المتصوف ان يتامل ذاته كي ينقذ الحقيقة الكبرى عوضا عن فكرة صوفية اخرى تقوم على السمو مرتبة حتى الوصول الى العشق لله بعبارة اخرى فان عزيز بين نهجين متقابلين في فلسفة الصوفية منحازة لفكرة اساسية قوامها الاعتراف بالنفس كونها طريقة للحقيقة الكبرى.

هو بناء ادبي فني شديد الدقة ومغرق في الخيال ايضا.لاتعارض بين دقة الواقع وفوضى الحلم. وفي مسرحياته دعوة كي نعود الى الاصل والجذور وهي ليست دعوة الى التقهقر الى الماضي ولكن التقدم نحو الحاضر،نحو هنا والان بهذا الزمان والمكان عبر جذور آلام واللذة. وكنت كلما أقرأ عملا مسرحيا لعزيز او قصيدة جديدة تدهشني حالة التوهج والجرأة المطلة بين السطور والسبب ليس فقط انه يمس بكتاباته تناقضات الحياة الصارخة ولكن لانه كاتب يعيش مايكتب ويكتب مايعيش.ان حياته هي اجمل واروع وابدع مؤلف كتبه. التحام الفن بالحياة العامة هو ما اعطى مسرحيات عزيز نكهتها الفريدة المفعمة بجرأة العقل والقلب دونما انفصال وهو الكاتب المتورط فيما يكتبه تورطا حياتيا عضويا لذلك هو يتحمس ويدافع عن مسرحياته وآراءه النقدية وهو بذلك لايسعى لحماية نصوصه او افكاره انما يدافع عن كل حياته بوحدة غير قابلة للتجزئة، فالافكار بمسرحيات عزيز حيوات تعاش.الفكرة كائن حي صعب المراس لاتمنح اسرارها الثرية الا عبر عناق دائم متجدد وهو الكاتب والانسان والممثل الذي رفض القهر على المستوى الشخصي والعام وكانت حياته صراعاً لايهدأ لفك سلاسل القيود بجميع اشكالها وقد كان يؤمن بان حرية الانسان لاتزدهر الا بازدهار حريات الاخرين، وليس غريبا ان نجد ان اشهر مسرحياته تحمل عناوين لرجال عشقوا الناس والحياة (ابن ماجد،بشر الحافي، السهروردي) وهو في هذه المسرحيات لم يكن يسعى الى استنساخ ابداعي وفني لشخوص من الماضي او لفلاسفة الصوفية ربما لان فكرة الحقيقة الازلية كاملة في اعماق النفس وان كل هم المتصوف ان يتامل ذاته كي ينقذ الحقيقة الكبرى عوضا عن فكرة صوفية اخرى تقوم على السمو مرتبة حتى الوصول الى العشق لله بعبارة اخرى فان عزيز بين نهجين متقابلين في فلسفة الصوفية منحازة لفكرة اساسية قوامها الاعتراف بالنفس كونها طريقة للحقيقة الكبرى.

السومري..عزيز عبد الصاحب

نجم عذوف

ذات ليلة شتوية متدثرة بالغيم والمطر ذو اللحية الكثة كنا نجتمع حول رعشة البرد النحيل الذي يداعب مفاصلنا الخاوية ، كان الظلام يرقص على صوت المطر المنهمر من الأعالي المجهولة وفي لحظات شاردة الذهن ترسل السماء دوي رعدٍ يشبه صوت الحروب ، وبين ذا ... وذا طرقات الباب توقظ شرودنا المبهم المختلط بانفعال السماء وانشغالاتها بالعربدة اللامرئية .. اقفز لأفتح الباب ، فالمسافة بيني وبين الباب تمتد لآلاف السنين الضوئية بعد أن تركت كأسي يثمل على الطاولة في غرفتنا المتهرئة وجدرانها المشققة في إحدى زوايا الباب الشرقي حيث كنا نجلس أنا وقيس لفته مراد الشاعر الذي أكلته الفنادق وقذفته عظاما ليكون بيننا في شقتنا الخاوية هذه . قيس هو عبارة عن متناقضات وأضداد اجتمعت فيما بينها ، قيس هو عبارة عن الناصرية كلها وقد ارتحلت إلى بغداد لتكون شاهدا على الغربة والتشرد والتسكع في أرصفة الثقافة والأدب والصحافة ، قيس الذي يشبه القصائد الغريبة وهي تتنقل من غربة إلى غربة ومن الم إلى الم ، هكذا يحس الشعراء حينما يرتحلون من مدنهم إلى بغداد وكأنهم ارتحلوا إلى عالم غريب لا يشبه عالم الولادة والطفولة والصبا ، ينتابهم إحساس الغربة والتشرد وان كانوا في بلدهم فأصعب غربة هي الغربة في داخل الوطن ، هكذا أحسها (جبار الغزي) شاعر الأغنية العراقية ولذا جاءت أغنيته (غريبة الروح)..

وصلت الباب فتحته وإذا بي أجد أمامي احمد بن عربي أو احد متصوفة بغداد بلحية بيضاء تشبه رذاذ الثلج النرويجي وهو يتساقط ليلة راس السنة ، يحمل حقيبته التي علقها على كتفه وقلبا انصع بياضاً من الثلج الذي يشبه لحيته وكأني اسمع بداخله صوت حسين نعمه وهو يغني (يا حريمة انباكت الجلمات من فوك الشفايف) يتحدث بصوت دافئ يجعلك تحس بالدفء حتى وان كنت في أقاصي الشمال النرويجي.. سلم بطريقة جنوبية جميلة ممتزجة بالمسرح حيث هو موطنه الذي ولد فيه وتنقل بين بيوته، أنه (عزيز عبد الصاحب) دخل بخطوات متثاقلة مترنحا في مشيته يتمايل مع خطواته التي تشبه حزن كلكامش على انكيدو ، دخل غرفتنا اللامضاءة بمصابيح سوى بصيص فانوس يبعث ضوء خافتاً كأرواحنا التي تنازع هزيعها الأخير ، خلع معطفه وارتمى على الكرسي واخرج من جيبه (أسبيل) ووضعه قريبا من فمه وبدأ يضغط عليه ليعطيه جزء من الهواء النقي ليقيه شر الاختناق لأنه كان مصابا بالربو ، بدأنا نتحدث عن كل شي عن الأدب والمسرح والفن وعن الناصرية والذكريات نتحدث عن اينانا والآلهة السومرية نتحدث عن المرئي واللامرئي نتحدث عن الكوخ والهور وآخر رحلة لصياد السمك السومري قبل أن يجف الهور ، كان عزيز عبد الصاحب يتأمل كثيرا ، كان له خصام مع قيس لفته مراد هو خصام (الصوفية والمادية) خصام فكري ليس إلا فعزيز عبد الصاحب غزله قرآني وهو يتغزل بالآيات حينما يقرأها وكأنه يتلو علينا إحدى قصائد ناظم حكمت التي كنبها عن فاطمة.

عزيز عبد الصاحب وجدته عذبا حد اللعنه حنونا حد الثمالة صادقا حد الموت الذي رحل إليه ، قرأ الأدب العربي والأوربي، قرأ الصوفية بشكل جميل وقرأ المسرح بأكثر جمال ليستحق أن يكون رائداً من رواد المسرح العراقي، عزيز عبد الصاحب سومري الأخلاق والسلوك والتصرف في كل خطواته.. عزيز الإنسان والأب والفنان الذي أعطى الكثير للمسرح العراقي والتلفزيون والسينما .. كان يعشق الناصرية التي خرج منها صبيا ليدرس الفن ولكنه لم يغادرها فهي حاضرة فيه تعيش بداخله، أهلها، شوارعها، شواهدها، معالمها ، طبيعتها.

لم يبخل عزيز عبد الصاحب بشيء من إمكانياته الفذة فقد وهبها لفنه وأدبه فهو الشاعر الفنان ،عزيز المؤلف هو عزيز الممثل والمخرج والكاتب .

عزيز عبد الصاحب مبدع ولدته الناصرية مثلما ولدت الكثيرين ، ولدته مثلما ولدت المبدعين فنعم الأم التي رحمها ثقافة وأدب وإبداع ..

رحل عزيز عبد الصاحب إلى العالم الذي أحبه وعاش من اجله رحل عزيز وما زال قلبه ينبض فينا حبا وجمالا ، رحل عزيز الجسد ولم يرحل عزيز الإنسان والمبدع والفنان فعزيز حاضر فينا في حلنا وترحالنا حاضر في غربتنا.. في شوقنا إلى العراق ومدنه.. حاضر كسومر في ذاكرة التاريخ ، أعلن كلكامش الحداد وأمر النائحات أن يندبن عزيز.. اتشحت المعابد بالسواد وسومر أعلنت الحداد وخرجت الآلهة تشيع ابنها البار عزيز عبد الصاحب في ليلة كان الصيادون قادمين من الهور إلى المدينة المقدسة وهم يحملون أكداساً من سمك (الصبور) وهم يرددون أغنيتهم (حملونا شوق الليالي وراحوا، ليتهم مثلما استراحوا أراحوا).

سلاما على روحك الطيبة يا عزيز وسلاما عليك يوم ولدت في الناصرية ويوم رحلت بعيداً عنها .

سلاما على أرواح كل المبدعين وعلى أرواح كل المظلومين في عراق الألم والعذاب، البلد الذي تحول إلى مقبرة تحتضن أبناءها.. فسلام .. سلام .. لكل من حال بيننا وبينه التراب .

سلاما على العراق وشعب العراق ومبدعي العراق وسلاما على مقابر العراق بيتنا الأزلي